قراءات ومراجعات

قراءة في كتاب
الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر
دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية*
تأليف: الدكتور سعيد شبار**

عبد الرحمن العضراوي***

إن القول في الاجتهاد اجتهاد؛ فهو موضوع للدراسة العلمية، تحكمه ضوابط شرعية وواقعية، تمنحه قواعد التجدد وإعادة بناء القول فيه، وإعادة بناء منهجية التفكير من المرجعية الإسلامية، انطلاقاً من مقدمات شرعية، وتعليلات مقاصدية، ومراجعات نقدية.

ولقد كان قول الدكتور سعيد شبار في الاجتهاد والتجديد، والإصلاح والنهضة، قراءة عقلانية ومنهاجية ناضجة، تسلحت بالوعي بإشكالية الاجتهاد والتجديد في المنظومة المعرفية الإسلامية، وما تتطلبه من نظر علمي جاد، لتحديد المرجعية، والمنهج، والمجال العملي الواقعي. فلتحديد المرجعية والمنهجية، اختار مدخل دراسة المفاهيم، التي عدّها موجهة لفعل الاجتهاد والتجديد، وناظمة للإطار الذي يستوعبه، وذلك عبر ملاحظة التطور التاريخي والدلالي للمفاهيم، التي رآها محورية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. ولتحديد المجال العملي والواقعي، اختار دراسة الأسس المرجعية

---

* شبار، سعيد. **الاجتهاد والتجديد في الفكر العربي المعاصر: دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ٦٤٠ صفحة.

** رئيس شعبة الدراسات الإسلامية في بني ملال، المغرب، وأصل الكتاب الذي تتضمنه هذه المراجعة هو أطروحة الدكتوراه التي قدمها الباحث في جامعة محمد الخامس بالرباط عام ١٩٩٦م.

*** أستاذ الفقه والأصول في شعبة الدراسات الإسلامية بني ملال المغرب. abououajih08@yahoo.fr

والمنهجية في الفكر الاجتهادي المعاصر لحركات الإصلاح والنهضة، وعوامل إخفاقها وانحسارها التاريخية والفكرية، قصد التجاوز واستئناف البناء. وعمل على تفصيل التحديدين في أربعة أبواب متناسقة المقاصد بمنهج وظيفي يقوم على التحليل التاريخي المقارن، والوصف والتقرير والنقد والتقويم، واعتماد كمٍّ هائل من المصادر والمراجع، أسعفته في الوصول إلى ما عدّه غايات أطروحته.

تضمن الباب الأول دراسة في المصطلحات والمفاهيم المحورية الموجهة لحركة التجديد والاجتهاد في الفكر الإسلامي المعاصر. وقد تناول فيه ثلاثة فصول:

– الفصل الأول: في معنى الاجتهاد وعلاقته بالرأي.

– الفصل الثاني: في المقتضيات المرجعية والمنهجية للاجتهاد، ودرس فيه الاجتهاد والنص، ثم الاجتهاد وأصول الفقه من حيث دليل الإجماع والاجتهاد الجماعي.

– الفصل الثالث: في شروط المجتهد، وجدل الائتلاف والاختلاف من خلال دراسة الفكر المعاصر، وتوجهات المراجعة والمحافظة، وشروط المجتهد، وقراءة في نماذج تاريخية ومعاصرة، ومسألة الصواب والخطأ في الفكر الاجتهادي.

واشتمل الباب الثاني على موضوعات: التجديد، والتقليد، والاتباع، ودراسة في المصطلح والمفهوم، وأشكال العلاقة بالاجتهاد. وقد تناول فيه فصلين:

– الفصل الأول: في مفهوم التجديد وأسسه، وأوجه التداخل والتكامل مع الاجتهاد، وذلك من خلال دراسة التجديد في اللغة والشرع والاصطلاح، وبيان معالم في الأسس المرجعية والمنهجية للتجديد في الفكر الإسلامي، وكشف تعدد المرجعيات في فهم مفهوم التجديد واستعماله، وتحليل مصطلحات تنتسب لعائلة مصطلح التجديد نحو: التغيير، والإصلاح، والإحياء، والبعث، والنهضة.

– الفصل الثاني: في مفهوم التقليد والاتباع، وأوجه التقابل والتكامل مع الاجتهاد؛ إذ ابتدأه ببيان التقليد في اللغة والشرع والاصطلاح، ثم حلل من جهة أولى

علاقة الاجتهاد بالتقليد، من خلال رؤية في التداخل والتقابل، والدور التكويني والتربوي للأمة، ومن جهة ثانية علاقة الاتباع والتقليد من خلال رؤية في التقابل والتمايز.

وتناول الباب الثالث موضوع: الأمة إطار المرجعية والعالمية في الفكر العربي والإسلامي، وقد تناول فيه ثلاثة فصول:

– الفصل الأول: الأمة والكيان التاريخي الناظم لحركة التجديد والاجتهاد، وذلك عن طريق دراسة مصطلح الأمة، والإجماع الشرعي للأمة، ودلالته التاريخية والواقعية.

– الفصل الثاني: المرجعية أرضية العمل التجديدي النهضوي وثوابته، من خلال بحث مفهوم المرجعية، ومسألة الهوية، ثم المرجعية، والمركزية الغربية.

– الفصل الثالث: العالمية: المجال الكوني للعمل التغييري والدعوي، ومنهجية الدمج والاستيعاب والتجاوز، وذلك بتحديد مفهوم العالمية، ودلالتها الشرعية والتاريخية، وعلاقتها بالخصوصية في الخطاب العربي والإسلامي المعاصر.

أما الباب الرابع، فقد تولى دراسة الأسس المرجعية والمنهجية في الفكر الاجتهادي لحركات الإصلاح والنهضة، وفي عوامل إخفاقها وانحسارها، وقد جاء الباب في ثلاثة فصول:

– الفصل الأول: في النهضة العربية: الخطاب القومي والعلماني وحداثة فكر النخبة، وابتدأه بالحديث عن نظام الثقافة وعلاقته بالتغيير، لينتقل إلى تقديم محطات للمراجعة والتقويم في الفكر القومي، ثم الوقوف عند دلالة مفهوم الفكر العلماني، واصفاً خطابه بأنه دائم الالتباس، اعتماداً على نماذج من التفسير العلماني.

– الفصل الثاني: قراءة في نماذج حركية وبرامج إصلاحية، وكان موضوع هذه القراءة عوامل الانهيار التاريخية، ومنطلقات ومناهج في نماذج حركية إصلاحية، وتقويم لتجاربها وعوامل انحسارها.

– الفصل الثالث: الفكر الإسلامي المعاصر والحلقات المنفصلة: محاولة في التركيب، وذلك من خلال ثلاثة مداخل: التأطير العقدي للفكر والعمل، اتجاه الوسطية والاعتدال، الواقعية والتنزيل.

وأخيراً جاءت خاتمة الكتاب ملخصة لنتائج البحث؛ إذ بيّن فيها الباحث أن الفكر المعاصر تمت صياغته تحت تأثير عاملين أساسين: سيادة تقاليد عصور الانحطاط، وسيادة التقاليد الوافدة. ومن آفة هاتين السيادتين، اغتيال العقل المسلم وتصفيته من روح المبادرة والاجتهاد والتجديد والإبداع.

إن الكتاب –في بنيته الأساسية– محاولة جادة لتقديم دراسة تأصيلية للتحولات المعرفية، التي جعلت مفهوم الاجتهاد –في جدليته مع مفهوم التجديد– داخل التجربة التاريخية للمسلمين، يخرج من بُعْد معرفي شمولي تكاملي إلى بُعد تخصصي تجزيئي، وهذا يتبين من تقريره أن الاجتهاد التزام بتعاليم الدين جملة واستيعاباً وعملاً وسلوكاً، وأنه "بما هو بذل للجهد من العالِم في تعليم غيره، ومن المتعلم في الأخذ عن العالِم، حركة دائبة في المجتمع، خرَّجتْ من أجيال القرون الثلاثة الأولى السلف الخيِّر لهذه الأمة: علماً وعملاً وفقهاً وتقوى... ." (ص٣١) فالاجتهاد من واجبات الدين وفرائضه، وهو النسغ المغذي لجسم الأمة، يزودها باستمرار بما تحتاجه من دماء جديدة، وهو دليل حركيتها وفاعليتها. والانفكاك من شروطه وضوابطه وتعطيله، وقوع في مقابله الذي هو اختلاف التضاد والجمود والتقليد، "لكن الإشكال من زاوية نظر تعالج مسألة تخلف الأمة، وتعطل حركة العقل والفكر فيها، والاجتهاد على رأسها، هو اختزال مفهوم الاجتهاد الذي كان فعلاً حركة عقل ومجتمع، في إطار أصول دينية واضحة، وجعله آلة خاصة بمجال التداول الفقهي، الذي كان بدوره المغذي الأكبر لهذه

الحركة. لكنه لما أتى على هذا المجال زمان من الجمود والانكماش قضى على تلك الحركة أن تتوقف، وعلى العقل أن يستقيل، وعلى الاجتهاد أن يغلق بابه، وعلى الأمة أن تنسحب من موقع الشهادة والقيادة." (ص٣٧)

ورغم الملامسة القليلة للسنن التاريخية الكامنة وراء تفشي داء التقليد في الأمة، وأنه طارئ على جسمها، فقد رأى الباحث أن "التقليد: مصطلحاً ومفهوماً لَعِب من الأدوار السلبية في تاريخ الأمة ما لَعِب، وسمح لأضرب من الجهل والخرافة أن تنمو في أحشاء هذه الأمة." (ص٢٥٢) ولهذا جعله فيصلاً معرفياً بين مبتدأ حركة الاجتهاد، المستوعبة لفعل الأمة في القرون الثلاثة، وصيرورتها المتراخية إلى حد السكون في القرون اللاحقة إلى الزمن المعاصر؛ إذ إن إشكالية جعل الاجتهاد مقصوراً على المجال الأصولي والفقهي، بدلاً من النظر إليه في شموليته وتكامليته في فعل الأمة، ولَّدت آفة علمية لم يخرج فيها الفكر الإسلامي المعاصر عن مثيله في القديم، مع ملاحظته حركة الإصلاح الناشئة والداعية لتجديد ينطلق، لا من استئناف الاجتهاد في الفروع فحسب، بل من إعادة تأصيل الأصول.

وفي هذا السياق تحدث عن معالم في الأسس المرجعية والمنهجية للتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، من خلال تتبعه لتصور منهجي للعمل التجديدي، ناهضٍ في الأمة "يحدد الانطلاقة المعرفية من الينابيع الصافية كمرجعية، كما يحدد الاسترشاد بالجيل الأول من أجل الفهم السليم للدِّين، ومن أجل التخلص من الشوائب وأشكال الغلو التي لحقت به أو طرأت عليه، ويقدم بين يدي ذلك معالم منهجية تساعد على حسن الفهم." (ص١٨٥)

وإذا كان للتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر مرجعيات ذات اتجاهات متعددة في الفهم والاستعمال، فإن الاتجاهات القومية في تركيزها على عوامل الجنس، واللغة، والثقافة، والتاريخ.. تعطي للعامل الديني دوراً ثانوياً، كما أن الاتجاهات العلمانية، في تركيزها على شرط الانفتاح على العقلانية والحداثة والمدنية والعلمية، تدفع بالعامل

الديني إلى الركن الشخصي الضيق. ونجد بالمقابل تيارات إسلامية "تعطي الأولوية للعامل الديني؛ إذ تهمش أو تتنكر للعوامل الأخرى، دون إفادة مما تسمح به من إيجابيات في تعزيز صف الوحدة الداخلية، والانفتاح على المعارف الخارجية." (ص٣٤٣)

وقد حدد الباحث خمسة معالم كلية كبرى للأسس المرجعية والمنهجية للفكر الإسلامي:

- الوحي الإلهي المنطلق والمحدد الأول، وفيه القطعي، الظني.
- العقل البشري مناط التكليف، وفيه أيضا القطعي، والظني، والوهمي.
- الواقع والكون المحيط به، وفيه السنن الثابتة، والأحوال المتغيرة.
- التراث الإسلامي بوصفه مرجعاً معرفياً وثقافياً، وفيه ما هو دائر حول الوحي منطلقاً وغاية؛ إذ تجب الإفادة مما يدعم الفكر التجديدي والاجتهادي التغييري للأمة، وفيه ما هو إنجاز حضاري عام.
- التراث الإنساني، وفيه ما يلزم حسب مقياس في القبول والرد والإفادة من تجاربه ومعارفه، وفيه ما يلزم الحذر من آفاته وسلبياته.

ويرى الباحث أن الأمة هي إطار المرجعية والعالمية في الفكر العربي والإسلامي، فهي تمثل الكيان الناظم لحركة التجديد والاجتهاد، التي يمكن اختزال خصائصها ومميزاتها في "مفهوم كبير جامع لها، بل ومكون من مجموعها، يعبر عن معانيها الاستيعابية الشاملة مفهوم الشهادة... ." (ص٣١٢) ومن شأن الوعي بهذا المفهوم، الوقوف أمام المرجعية والمركزية الغربية التي صارت أصلاً يقاس عليه، مما أفقد الأمة ثقتها بذاتها، و لم تعد هي المرجع الذي يقرر العلاقة مع مقتضيات المرجعية الغربية، التي فرضت عليها كيفية تقرير علاقاتها مع ذاتها، وثقافتها، وهويتها الحضارية، ومع أي آخر، على الرغم مما تختزنه الأمة الإسلامية من إمكانات، وطاقات قابلة للتنمية

والتطوير؛ لتنطلق في بناء حضاري قادر على تغيير ميزان القوى الدولي لصالحها، إذا أتيحت لها الإرادة السياسية والعلمية، وقادر على إزالة المضاعفات السلبية للمركزية الغربية على ذاته الإسلامية، وعلى الغرب نفسه، ببيان أن "الإفراطَ في تضخيم الأنا بمحاولات تحقيق كل نزعاتها التملكية والتوسعية مرضٌ نفسي." (ص٣٦٣)

فالتجديد عند المؤلف ليس حركة نظرية مجردة ومنفصلة عن الواقع، بل هو إجماع شرعي للأمة، واجتهاد جماعي، واختيارات جماعية شاملة لكل مقتضياته؛ ليكون أكثر قدرة على استيعاب الواقع المتغير ومشكلاته المعقدة والمركبة، التي لم تعد تجدي فيها الحلول ولا الجهود الفردية، يقول: "في فكرنا المعاصر نجد الحاجة ماسة أكثر إلى هذا النوع من الإجماع، بما يحمله من قيم الوحدة والتوحيد في المجالات كافة، أمام ما ساد في واقع الأمة من أوضاع التجزئة والتخلف والوهن... وموت حس التكليف الجماعي، والشعور بالاستخلاف في الأرض والشهادة على الناس." (ص٣٢٩) وهذا الاجتهاد الجماعي كفيل، عند تفعيله، بتحريك مفهوم العالمية، بوصفها المجال الكوني للعمل التغييري والدعوي، وتأسيس منهجية علمية وواقعية للدمج والاستيعاب والتجاوز.

وفي سياق إبراز الفكر الاجتهادي بوصفه عملاً فكرياً منهجياً وجهداً علمياً متواصلاً، وأنّ الأمة الحية ذات القوة المتطورة هي التي تجعل المنهجية الاجتهادية مدرسة وأسلوباً علمياً عاماً، قدّم المؤلف دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية للفكر الاجتهادي لحركات الإصلاح والنهضة، وفي عوامل إخفاقها وانحسارها، فتوقف مستبصراً ثلاثة نماذج:

- النهضة العربية... الخطاب القومي والعلماني وحداثة فكر النخبة.
- الإصلاح الإسلامي... قراءة في تجارب حركية وبرامج إصلاحية.
- الفكر الإسلامي المعاصر والحلقات المنفصلة... محاولة في التركيب.

ومن خلال الاستقراء الذي قام به لمظاهر الانهيار في الأمة، عبر تشخيصات مختلفة لعوامل انحسار حركات الإصلاح فيها وفشلها، ولعديد من المبادئ والخطوات الإصلاحية التغييرية، اتضح له أن "قضايا الفكر الإسلامي الراهن، ومتطلباته في العمل الاجتهادي التجديدي، والإصلاحي التغييري، يبدو أنه في حاجة -بالإضافة إلى تصحيح مفاهيم الفكر نفسها- إلى الوقوف على ثلاث حلقات كبرى منفصلة بعضها عن بعض، تقتضي شرعاً ومنطقاً التركيب والتكامل فيما بينها؛" (ص٥٥٣) لأن كل واحدة منها عانت أنواعاً من التحريف التاريخي، الذي أنتج العديد من المظاهر السلبية في الأمة على مستوى الفكر والعمل. وفي نظر الدكتور شبار كان عطاء الفكر الإسلامي المعاصر في هذه الحلقات شحيحاً جداً، ولذا يقدمها بالاستكشاف والإبداع نفسه، وهي:

- التأطير العقدي للفكر والعمل؛ إذ كان من آفات الأمة التاريخية أن نما الفكر، وتشعب، واستمر من غير تأطير عقدي مواكب وموجّه.

- الوسطية وخط الاعتدال؛ إذ كان من آفات الأمة التاريخية -كذلك- أن انتفخت وتورمت بعض قضاياها... فقهية وسياسية وكلامية... حتى خرجت عن خط الوسطية والاعتدال، إلى أشكال مختلفة من الإفراط والتفريط والغلو والتشدد... .

- الواقعية وفقه التنزيل؛ إذ نشأ ونما في تاريخ الأمة -بسبب ما تقدم وبالإضافة إلى التحديات الخارجية قديماً وحديثاً- فقه غير واقعي، وواقع شديد التعقد والتركيب، يستلزم إدراكاً عميقاً لمكوناته ومهارة في تنزيل الأحكام، وفهماً عميقاً لنسيجها وارتباطها الشبكي في أصولها، بما يحقق مقاصد الشرع وغاياته.

يقول المؤلف: "أعتقد أنه إذا أضفنا أصل الواقعية وفقه التنزيل، إلى أصل الوسطية وخط الاعتدال، إلى أصل التأطير العقدي للفكر والعمل، فإننا سنكون بذلك قد وصلنا بين حلقات منفصلة داخل فكرنا المعاصر، لا تستطيع واحدة منها مهما انصلحت أن

تقوم به ما لم تعضده الأخريات. ولعل تجربة الانفصال التاريخية بين هذه الحلقات، من خلال ما اتضح من الجهود الإصلاحية، قد كانت عوائدها وخيمة على الأمة، هذا فضلا عما أصاب كل واحدة منها من تشويه وتحريف. وهذا الدرس الذي ينبغي للفكر الاجتهادي التجديدي، والإصلاحي التغييري المعاصر، أن يستوعبه بعمق وتجرد." (ص٦١٤)

إن أطروحة الدكتور شبار تؤسس لثقافة إرادة الاجتهاد والتجديد في الأمة، برؤية إسلامية ذات مقاصد معاصرة؛ ثقافة فاعلة لها القدرة على مواجهة التحديات المعاصرة المحيطة بالأمة، وأن تحقق من الفهم العميق والتنزيل الدقيق للوحي ومقاصده، ما لم تقدمه التجارب التاريخية السابقة. ولهذا فعلى "المكونات الفكرية المختلفة العاملة في حقل الأمة أن تدرك ما تقدم بعمق، وأن تراجع -وقد بدأ بعضها يفعل- ما كانت تعدّه بديهيات ومسلمات لديها، وأن تختار الأرض الصلبة المدعومة بأنفاس الأمة التاريخية والراهنة، وكذا تطلعاتها المستقبلية. أرض الذات بمرجعيتها الدينية والتاريخية والحضارية. فرسالة خالدة لا يمكن أن تنهض بها أمة نائمة، ورسالة عالمية كونية لا يمكن أن تنهض بها فئات، لا ترى للعالم لوناً إلا ما تريده هي أن يكون عليه.

ورسالة قامت أول ما قامت على القراءة والعلم والقلم والخلق، لا يمكن أن تنهض بها أمة يمزقها الجهل وتقطع الأُمِيَّة أوصالها، ورسالة قامت على التوحيد والتوحد لا يمكن أن تنهض بها أمة بينها مما يفرق أكثر مما يجمع ويوحد، ورسالة قامت على العزة والكرامة والإباء بما في ذلك من قيم التواضع، لا يمكن أن تنهض بها أمة تذيقها الأمم ألوانا من الذل والهوان." (ص٦١٩)

وإذا كانت هذه الأطروحة تستدعي العناية بها قراءة متفحصة، لما تحمله من إسهام حقيقي في بناء مشروع حضاري إسلامي، متكامل معرفياً ومتفاعل واقعياً، فإنها فاتحة لقراءات نقدية واسعة تتناول أسئلة مضمونية ومنهجية:

أولاً: عن مقدمات معرفية لدراسة المفاهيم، ثم التوقف العلمي الرصين عند المفاهيم المعتمدة نحو الاجتهاد، والتجديد، والأمة، والمرجعية، والعالمية، وإجماع الأمة وعلاقته بالسياسة الشرعية، والإصلاح، والنهضة.

ثانياً: عن قواعد المنهج المتوسل بها، لاستخلاص الأسس المرجعية والمنهجية في الفكر الاجتهادي والتجديدي، والخطاب النهضوي والإصلاحي.

ثالثاً: الركون إلى منطق المعرفة الداخلي، في غياب منطق التاريخ السياسي والاجتماعي، مما سهل سيادة منطق الاسم على منطق الفعل، وسيادة منطق التساكن لا منطق التغيير وسننه الشرعية والبشرية والكونية..

وهي أسئلة مشروعة ودافعة نحو تأسيس عقلية إسلامية تعليلية اجتهادية وتجديدية، ينتجها فعل الأمة الشاهدة.